كَيْفَ نَسْتَنْقِذُ أَسْرَانَا؟

بقلم:
أبو أسماء الكوبي
-وفقه الله لما يحبه ويرضاه-

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائل: {وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ} والصلاة والسلام على رسوله الكريم، البشير النذير، وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد:

فليعذرني رجال الله المجاهدين في الأسر، أسأل الله أن لا يجعل هذه الكلمات حظنا من النصرة فقط، بل أسأله سبحانه أن يعيننا على العمل لنصرة إخواننا وخيارنا ولا نزكيهم على الله؛ بفكاك أسرهم ونسأل الله أن يعجّل لهم بذلك.

أحبتي في الله.. إن الدعوة إلى التوحيد والجهاد مرّت بمراحل عظيمةٍ، منذ قيام الجماعة الأولى بقيادة خير عباد الله أجمعين نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، والمهم في هذا المقام أن نعرض بعض الصور للأسر في المرحلية، وحقّ الأسير على المسلمين، والواجب على الأسير في أسره، ونسأل الله العظيم أن يسدد القول ويثبت الحجة، وأن يشفي به قلوب المؤمنين.

كانت الجماعة الأولى بقيادة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام هي التي تقوم بكل تكاليف الدين والدعوة، من دعمٍ وبذلٍ وتضحيةٍ بالرجال بين أسر وقتل، وهذا هو حالنا اليوم؛ أنَّ المجاهدين في سبيل الله هم الذين تكلّفوا أعباء الجهاد في دفع العدو الصائل، وإقامة الشريعة عن الأمة الإسلامية، ومرُّوا بمراحل الأسر والابتلاء، ونقصٍ في الأموال والرجال؛ ولكنها مرحلية لا بد منها؛ حيث أن الجهاد في هذا الزمان ليس ضد دولة واحدة أو أمة واحدة، بل ضد أمم الكفر وعملائها قاطبة، قال صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها. قيل: يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير؛ ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن. قيل: وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت" رواه الإمام أحمد، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

ونحن ما زلنا بصورة منظومة وجماعة، وهي التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك" رواه مسلم. فما يصيبنا في طريق دعوتنا وجهادنا من بلاء وشدة إنما هو من مستلزمات الطريق، الذي هو الوسيلة لغايتنا العظيمة أن يكون الدين كله لله.

***

وسنذكر في مقالتنا هذه -بإذن الله- بعض المراحل التي مرت بها الجماعة الأولى في نصرة الأسير:

المرحلة الأولى: الدعاء للأسرى وتصبيرهم وتذكيرهم بالأجر العظيم من الله تعالى:

عندما أظهرت الجماعة الأولى دعوتها بالصدع والتوحيد، ما كان من قريش إلا أن تعاملت مع هذه الدعوة بأعلى مقامات القمع من أسر وقتل، وكان من صور القمع أَسْرُ عائلة بأكملها؛ عمار بن ياسر وأمه وأبوه -رضي الله عنهم وأرضاهم- وكانوا يمرّون بأصناف العذاب وأمام الناس أجمعين، ظاهرين لا في زنازين، وكان قائد الجماعة محمد صلى الله عليه وسلم يمرّ عليهم وينظر إلى حال أتباعه وهم مقيدون بالحبال، الرجال والنساء سواء، فلم يجعله ذلك المنظر يتنازل عن دعوته والصدع بها، ليخفف على أصحابه؛ حيث أن إقامة الدين مقدمة على النفس، بل كان صلى الله عليه وسلم يوصيهم بالصبر، ويعلق قلوبهم بالله وما وعدهم الله على صبرهم على الأذى فيه، فكان يقول: "صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة"؛ لأن الابتلاء والأسر من مراحل الطريق، والنصر فيها هو بالثبات لا بالانهزام والتراجع، فلم يأمرهم صلى الله عليه وسلم بالأخذ بالرخص، أو يبعث إليهم طلبة علم أو مشائخ يقنعوهم أن يتنازلوا عن دينهم ويقدموا التراجعات، وتُقتل سمية وزوجها ياسر -رضي الله عنها- ولم يغيِّر ذلك في منهج الجماعة شيئاً، بل ثبتوا حتى جعل الله سبحانه وتعالى فرجاً في المرحلة التي بعدها، لمن بقي من الأسرى.

المرحلة الثانية: الفداء بالمال:

عندما يئس المشركون في مكة أمام ثبات الأسرى على دينهم وتوحيدهم، بدؤوا يتنازلون من العداء العقدي إلى المصالح، فكان أبو بكر الصديق -رضي الله عنه وأرضاه- يمرّ على أصحابه المعذبين، ويعقد صفقات بيعٍ وشراءٍ مع المشركين الذين يأسرونهم، فكانوا يوافقون مباشرةً، فرضوا بالدنيا عن الآخرة، وبذل الصحابة الدنيا من أجل الآخرة، وهذا هو الفرق بين المنهجين، منهج يريد الدنيا ومنهج يريد الآخرة، فكان أبو بكر يشتريهم ويعتقهم لله، وهذه مرحلة الفداء.

المرحلة الثالثة: الرهائن وتبادل الأسرى:

وفي السنة الثانية من الهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية بقيادة عبدالله بن جحش -رضي الله عنه- وكان في آخر أيام رجب من الأشهر الحرم، وأعطاهم رسالة وأمراً ألا تُفتح حتى يخرجوا من المدينة بيومين، القصة مشهورة في السير والتفاسير وهي التي نزل فيها قول الله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ ...} الآية، والشاهد من القصة أن سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان -رضي الله عنهما- ضاع عليهما بعيرهما في أرض العدو، وهم في أثره يبحثون عنه، وعندما رجع عبدالله بن جحش ومن معه من أصحابه والأسيران، وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرد الأسيرين إلى قريش، توقف حتى يرجع أصحابه المفقودون في أرض العدو سعد وصاحبه، وأبقاهما رهينتين، وهذا من طرق النصرة في فك العاني؛ أن يجتهد في هذا الباب رجال ويبحثوا عن رهائن يفادوا بهم، وهي مرحلة إذا لم يكن للمسلمين جيش يدافع عن المسلمين ويهب لفك الأسارى من أيدي العدو -كما هو حالنا اليوم-.

المرحلة الرابعة: فك الأسرى بالقوة والقتال:

عندما تكونت الدولة الإسلامية وتوحد الجيش الإسلامي تحت قيادة محمد صلى الله عليه وسلم وخرجوا إلى الحديبية، وأرسلوا عثمان بن عفان إلى أهل مكة ليبين لهم مرادهم من القدوم؛ وهو أنهم يريدون العمرة فقط ولا يريدون القتال، فعندما جاء خبر أسر عثمان وقتله -رضي الله عنه وأرضاه- ما كان من القائد صلى الله عليه وسلم إلا أن حرَّض الجيش وأخذ بيعة الموت، وأن لا يفرُّوا حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه قريش الذين أسروا وقتلوا عثمان -رضي الله عنه- (عندما أشيع خبر أسره وقتله).

فهذه أربع صور لفك العاني في هذه المرحلة وكلّها مقدور عليها من المجاهدين وأنصارهم بإذن الله – ما عدا الرابعة فعلى حسب الحال والقدرة- وقد يرتبط صاحب المال بمجموعة خطف الرهائن، ويُنسق بينهم للعمل في فك العاني المسلم الذي من حقه شرعاً أن يُنصر من كل قادر من المسلمين.

وهناك طرق المنظمات الحقوقية التي نسمع بها اليوم، وفيها من المنظمات الحقوقية التي في بعض بلاد المسلمين، ويقوم عليها أناس مسلمون، ولها نظمها وطرقها، وهذه قد ينصر الأسير منها لمن له بها خبرة من الحقوقيين المسلمين، وهذه يجيدها والله أعلم بعض المنتسبين إلى بعض التيارات الإسلامية -وعنده سعة في الدين بالتعامل مع هذه المنظمات- فنقبل من المسلمين نصرتهم للأسرى بما يستطيعون ولا نثرِّب على أحد في نصرتهم.

وهناك بعض أهل الهيئات في المجتمعات الإسلامية وله وجاهة شرعية أو اجتماعية، وإن كان له مواقف ضدّ المجاهدين من تحريض وتشويه وتفريق للجماعات الجهادية، وتعامل مع وزارات الداخلية، ثم كان منه نصرة للأسرى فلا بأس فنصرة الأسير واجب على العموم، ويُتعامل معهم في باب الجهاد كما تعامل الرسول صلى الله عليه وسلم لمن خذله في أحد عندما لم يأذن لهم بالخروج معه في حمراء، ولكل مقام أهل.

وأما حال الأسير في الأسر فهو كما صوره لنا أسير الإسلام الأول خُبيب بن عدي –رضي الله عنه-:

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رهط سرية عيناً، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهداة (وهو بين عسفان ومكة) ذُكروا لحيٍّ من هذيل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا لهم قريباً من مائتي رجل كلهم رامٍ، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمراً تزوّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب فاقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى (فدفد) وأحاط بهم القوم فقالوا لهم: انزلوا وأعطونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحداً. قال عاصم بن ثابت أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللهم أخبر عنّا نبيك. فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصاري وابن دثنة ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم إن في هؤلاء لأسوة -يريد القتلى-. فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم، فأبى فقتلوه، فانطلقوا بخبيب وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل ابن عبد مناف، وكان خبيب هو من قتل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً، فأخبرني عبيد الله بن عياض أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا، استعار منها موساً يستحد بها فأعارته، فأخذ ابناً لي وأنا غافلة حين أتاه، قالت: فوجدته مُجلسه على فخذه والموس بيده، ففزعت فزعة عرفها خبيب في وجهي، فقال: تخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك. وكانت تقول: والله ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، والله لقد وجدته يوماً يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديد، وما بمكة من ثمر، إنه لرزق من الله رزقه خبيباً. فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل قال لهم خبيب: ذروني أركع ركعتين. فتركوه فركع ركعتين ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتها. اللهم أحصهم عدداً.

فقتله ابن الحارث فكان خبيب هو من سن الركعتين لكل امرئ مسلم قتل صبراً، واستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب؛ فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه خبرهم وما أصيبوا. وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حدثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرف، وكان قد قتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله على عاصم مثل الظلة من الدَّبر فحمته من رسولهم، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئاً.

وفي رواية أبي الأسود عن عروة: [فلما وضعوا فيه السلاح –أي خبيب- وهو مصلوب نادوه وناشدوه: أتحبُّ أنَّ محمداً مكانك؟ قال: لا والله العظيم، ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه].

من هذه القصة نرى أن أسير الإسلام الأول -رضي الله عنه وأرضاه- سنّ لنا سنّة وهي الركعتين عند القتل، وقعّد لنا قاعدة عظيمة وهي: من كان همّه في الأسر دينه نجا، ومن كان همّه في الأسر نفسه هلك.

ويستفاد من هذه القصة أنه -رضي الله عنه وأرضاه- خرج من المدينة في مهمة للإسلام هو ومجموعته، ووُضع لهم كمين قبليّ بعد معركة كبيرة انتصر فيها الإسلام وهي بدر، فأُسر في هذا الكمين وبيع إلى أعدائهم الذين انتصروا عليهم في بدر وقتل منهم، وهو يعلم عندما وصل إلى أيديهم أسيراً أنه ليس له إلا القتل، فما كان منه إلا حسن التصبر وعظيم الثبات؛ ليرى منه أعداؤه أن الدين الذي قاتل من أجله عظيم، ويستحق أن يُضحى من أجله، وبعد أن قرروا قتله -رضي الله عنه- حدثت هناك مساومات عقائدية لينظروا حقيقة ما يحمله الرجل من إيمان، هل سيتنازل في الشدائد والابتلاءات أم سيثبت؟ فقالوا له: أتحبُّ أنَّ محمداً مكانك؟ فرد رد المؤمن الذي لا يتزعزع ولا ينثني عن مبدئه الذي حمل من أجله السلاح، وهو توحيد الله ونبذ الشرك وأهله، فقال: لا والله العظيم، ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه، رضي الله عنه وأرضاه. كيف سطر لنا التاريخ عزّ أولئك الرجال في أسرهم بثباتهم، فجاؤوا يراودونه ويغرُونه بالدنيا فقالوا: لك حاجة قبل أن تُقتل؟ -يظنون أن ما نحمله من إيمان يباع ويُشترى في سوق المصالح الدنيوية الدنيئة- فقال لهم: نعم أريد أن أصلي لربي ركعتين. -فمن أجل هذه الركعتين وهذه الصلاة لله رب العالمين خُلقنا- فأريد أن تكون آخر ما أودع به الدنيا. فصلى ركعتين -رضي الله عنه وأرضاه-، وهذا هو حال الأسير في أسره الصلاة والعبادة، فقال بعدما قضى صلاته مبيناً لهم حال هذه العبادة وحبه لها: والله لولا أني أخشى أن تقولوا خاف الموت لأطلتها. إي وربي لا نخاف الموت ما دمنا على نهج لا إله إلا الله محمد رسول الله، وما أعظم ما قاله في حاله وحال كل من بعده من الأسرى في تلك الأبيات العظيمة:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً * على أي شقٍّ كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ * يبارك على أوصال شلوٍ ممزَّعِ

ونلخص ما قلناه فيما يلي:

أولاً:حق الأسير على المسلمين، قال الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، قال القرطبي -رحمه الله-: [يريد إن دعوا هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا من أرض الحرب عونكم بنفير أو مال لاستنقاذهم فأعينوهم، فذلك فرض عليكم فلا تخذلوهم، إلا أن يستنصروكم على قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق، فلا تنصروهم عليهم ولا تنقضوا العهد حتى تتم مدته، قال ابن العربي: إلا أن يكونوا أسرى مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة والنصرة لهم واجبة؛ حتى لا تبقى منا عين تطرف حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم، كذلك قال مالك وجميع العلماء، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما حل بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدو، وفي أيديهم خزائن أموال وفضول الأحوال والقدرة والعدد والقوة والجلد]. فهذا في حال من لم يهاجر من المسلمين ولم يجاهد، فكيف بمن هاجر وجاهد في سبيل الله، وهو يستنصر من داخل الأسر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال صلى الله عليه وسلم: "فكوا العاني، (يعني الأسير)..." الحديث.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- (في مجموع الفتاوى): [فكاك الأسارى من أعظم الواجبات، وبذل المال الموقوف وغيره في ذلك من أعظم القربات].

قال السرخسي -رحمه الله- في كتابه (المبسوط): [من وقع أسيراً في يد أهل الحرب من المؤمنين وقصدوا قتله، يُفترض على كل مسلم يعلم بحاله أن يفديه بماله إن قدر على ذلك، وإلا أخبر به غيره ممن يقدر عليه، وإذا قام به البعض سقط عن الباقين بحصول المقصود].

ثانياً: الواجب على كل فرد وجماعة ومنظمة أن يبذلوا ما في وسعهم في فك إخوانهم الأسرى، فمن كان بماله فبماله، ومن كان بقدرته العسكرية والبدنية من خطف أو غيرها فليستعن بالله ولا يعجز، ومن يستطع بمجموعة أن يقتحم فليفعل.

ثالثاً: ألّا نثرب على من قام نصرةً للأسرى؛ ولو كان من كان في عدائه للجهاد والمجاهدين، ما دام في دائرة الإسلام، والواجب علينا أن ننزل الناس منازلهم، وأن لا نعلي أحداً قدره.

رابعاً: إن من حق الأسير علينا حفظه في عرضه وأهله، فالواجب علينا ألا ننسى أهله بما نستطيع، وأن نحفظهم في معيشتهم واحتياجاتهم.

خامساً: إليك أيها الأسير.. أوصيك بتقوى الله في السر والعلن، وأن لا يلتفت قلبك إلا لله، واجعل حديث ابن عباس -رضي الله عنه- نصب عينيك: "يا غلام: إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف" رواه الترمذي، وأوصيك بالقيام والإلحاح على الله بالدعاء وإكثار السجود، والله الله في حسن الظن بالله تعالى، فهو الذي أنجى يونس من بطن الحوت سبحانه، وأنجى موسى وقومه من فرعون وفلق لهم البحر بقدرته وسلطانه.

سادساً: إن حق نصركم علينا واجب، ونشهد الله العظيم أن ننصركم ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يفرج عن أسرانا جميعاً فرجاً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

اللهم إني أسأل بأنك أنت الله الرحمن الرحيم أن ترحم ضعفهم، وتربط على قلوبهم، وتشرح صدورهم، وأن تجبر كسرهم، وأن تعتقهم من أسرهم في الدنيا بفرج من عندك عاجلاً غير آجل، إنك ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أخوكم/ أبو أسماء الكوبي

جزيرة محمد صلى الله عليه وسلم

24/ ذو القعدة/ 1433هـ